

هل يهكن فلسفة التاريخ؟



نقول : أنه لا يمكن أن نبحت في التاريخ دون فلسفة ، ومصطلح فلسفة التاريخ مصطلح قديم يعود إلى فيكو الإيطالي (١٦٦٨ م . ١٧٩٤ م) عند البعض ، وإلى القديس أوغسطين (٣٥٤ م . ٤٣٥ م) عند البعض الآخر ، أو إلى أقدم من هذا ، ولكن المصطلح عُرف كموضوع مستقل ، في القرن الثامن عشر الميلادي على يد مفكري عصر الاستنارة من أمثال: هيردر ، وكوندرسيه ، ومونتسكيو ، وفولتير ، الذي ينسب إليه بلورة المصطلح.

لقد كان الدافع إلى البحث عن العلية أو السببية في تلك الفترة يعود إلى التصدي للمؤثرات الميتافيزيقية في فهم التاريخ والتي سادت مرحلة العصور الوسطى على يد رجال الكنيسة ، والعمل على دراسة التاريخ دراسة عقلية ترفض المبالغات والخرافات.

والحق يقال أن فلسفة التاريخ بمعنى البحث عن العلل والأسباب ، أقدم من القرن الثامن عشر الميلادي وعصر الاستنارة الأوربية ، فقد أشار إلى ذلك ابن خلدون إشارة لها مغزى دون أن يستخدم المصطلح نفسه ، عندما ميز بين الظاهر والباطن في التاريخ بقوله : " ففي ظاهره لا يزيد عن أخبار الأيام والدول السوابق من القرون ، وفي باطنه نظر وتحقيق ، وتعليل للكائنات ومبادئها دقيق ، وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها عميق ، فهو لذلك أصيل في الحكمة عريق ، وجدير بأن يعد في علومها وخلق ^(١) ."

وهذا يعني أن فلسفة التاريخ تتجاوز السرد والحشد لأخبار لا رابطة بينها ، وأنها تقوم على التعليل.

على أن الغرض من القول : أنه لا تاريخ بدون تعليل ، والعقلي ولمنطقي هو أن يتجنب الباحث نسبة الواقعة التاريخية إلى الصدفة وحدها ، بل عليه أن يبحث في ظروف الواقعة بحثاً علمياً سليماً ، فالمؤرخ يستطيع أن يفسر لنا قيام الحرب أو اغتيال شخصية تاريخية ليس بالصدفة ، ولكن بأسباب عقلية منطقية مقنعة ، مثلما يفسر الجيولوجي وقوع الزلزال ، أو مثلما يفسر عالم الطبيعة ظاهرة طبيعية معينة ^(٢).

نقول: إن المصادفة ما هي إلا مجرد تعبير عن عدم الإدراك العلمي السليم ، أو فلنقل مجرد تعبير عن الجهل بالأسباب الفعلية ، أي أنها اسم آخر لشيء نعجز عن فهمه ، فتسمية (الكواكب السيارة) نشأت من الاعتقاد بأنها تسير على غير هدى في السماء وقبل أن يتم فهم انتظام تحركاتها ، كما أن تعبير (سوء الحظ) طريقة مفضلة للتهرب من الواجب المهرق في البحث عن الأسباب ^(٣).

عندما نتكلم عن المعايير التي يجب على المؤرخ أن يتسلح بها ليصبح بحق قادراً على كتابة التاريخ كتابة منهجية نقدية سليمة ، لا بد أن نتساءل: وما هي المعايير المنهجية والفكرية التي تؤهل الباحث لكتابة التاريخ كتابة نقدية قائمة على أسس وأصول المنهج العلمي السليم ؟

يسري عبد الفتي عبد الله

باحث ومحاضر في الدراسات العربية

والإسلامية والتاريخية

جمهورية مصر العربية

ayusri_a@hotmail.com

■ الاستشهاد المرجعي بالمقال:

محمود محمد كحيلية ، كليبواترا البطلمية في الثقافة العالمية - دورية كان التاريخية - العدد الرابع ؛ يونيو ٢٠٠٩ ص ٥٨ - ٦٠ (www.historicalkan.co.nr)

١ . عبد الرحمن بن خلدون ، مقدمة ابن خلدون ، دار القلم ، بيروت ، ١٩٧٨ ، ص ٤٠٣ .

٢ . أحمد محمود صبحي ، في فلسفة التاريخ ، ص ٢٥ ، بتصرف من عندنا .

٣ . إدوارد كار ، ما هو التاريخ ؟ ، ترجمة / ماهر و بيار عقل ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ١٩٧٦ ، ص ٩٥ .

ومتاعب وآلام هو الشئ الذي يدفعه أي شعب يبغي تحقيق طفرة كبيرة ووثبة عالية ينتقل بفضلها من القديم إلى الجديد !!
والماركسيون هم أصحاب هذه النظرية التقدمية ، وإن كانت هذه النظرية قد لاقت الكثير من المراجعات من لدن أصحاب الفكر الجديد الذين انحازوا إلى التطور التدريجي الذي أدى إلى نتائج طيبة ومثمرة في كثير من البلدان خاصة في بلدان أوروبا الغربية واليابان ، وأن الثورة والعنف والدم لم يعودوا هم أنسب الطرق للتغيير التقدمي .

الرأي الثاني: هل يعيد التاريخ نفسه؟

عندما يعيد التاريخ نفسه أو نظرية العودة التاريخية ، هذه النظرية تتلخص في القول الشائع بأن التاريخ غالباً ما يعيد نفسه ، وهذا الرأي كان شائعاً ومعروفاً عند مؤرخي العصور القديمة ، وكان أفلاطون الفيلسوف اليوناني الشهير قد عبر عن هذا الرأي في محاوراته مع نيباوس ، ثم وردت هذه النظرية عند الشاعر الروماني / فيرجيل ، وتلاه سائر المؤرخين القدماء ، غير أن النظرية الحديثة المتصلة بعلم الفلك جردت هذه النظرية من أساسها الفلكي الذي اعتمد عليه أفلاطون ، وبالتالي فلا يوجد دليل واحد على صحتها ، وهذه النظرية ليست صحيحة بدرجة كاملة ، فليس من المنطقي أو المعقول أن نذكر التطور التاريخي وتغير الظروف الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والثقافية في أي مكان من عالمنا الذي نعيش فيه ، وذلك بفضل المبتكرات والمخترعات والاكتشافات العلمية الحديثة التي تلعب دورها الخطير في مسيرتنا الحياتية مع مطلع كل شمس .

صحيح أن بعض النماذج التاريخية قد تتكرر إذا تشابهت الظروف والأحوال النفسية والاجتماعية والاقتصادية ، ولكن ذلك قد يحدث في البلدان البعيدة عن تيارات التفاعل الفكرية ، ولكن أين هذه البلدان في عصر العولمة والفضائيات وتكنولوجيا المعلومات والانفجار المعرفي ؟!

لقد كان المؤرخون القدماء لا يهتمون بتاريخ البشرية ككل بل بالحوادث الفردية التي قد تتكرر ناهجها ، ولعل هذا ما دفعهم إلى الإيمان بفكرة العودة التاريخية ، أو كما نقول في كلامنا: إن التاريخ يكرر نفسه !

الرأي الثالث: نظرية الدوائر اللولبية

هذه النظرية تحاول التوفيق بين المدرستين السابقتين ، وترى أن التاريخ يتقدم والجنس البشري يرتقي بتقدم الخبرات الحضارية المستمرة ، وهذا هو الاتجاه العام للحضارة الإنسانية ، ولكن في نفس الآن تمر كل حضارة بدورة ثلاثية هي :

١. النشوء

٢. الاكتمال

٣. الانهيار

وفي بعض الأحيان يكون موت حضارة هو ميلاد حضارة جديدة أكثر تقدماً في منطقة أخرى من العالم ، على كل حال هذه هي سنة الحياة ، فليس هناك أي شيء مخلص ، ولسان الحال يقول دائماً: ما طار طير وارتفع ، إلا كما طار وقع !!

ها هو المؤرخ البريطاني / أرنولد تومبي يعدد لنا عدد الحضارات التي قامت على الأرض فيحدها بـ ٢١ حضارة ، ولم يتبقى منها سوى خمس حضارات فقط لا غير ، أما الباقي قد تحلل واندثر ، الذي بقي منها هو الذي استطاع أن يواجه التحديات التي واجهها ، واستجاب لها

لقد حاول الكثيرون الإجابة عن هذا السؤال بطرق شتى ، وقد صنف الإجابات تحت الآراء الخاصة بمسألة أو قضية فلسفة التاريخ ومفهومه ، وهي عموماً في تفسيراتها أو توجهاتها تتبع أحد اتجاهين:

الاتجاه الأول

هو الاتجاه الصوفي المثالي ، وهو رأي الفيلسوف / هيغل (١٧٧٠ م - ١٨٣٠ م) ومعاصروه الذين تأثروا بالإيمان المسيحي ، وهم يؤمنون بالعقل المطلق الذي هو المثل الأعلى لكل شيء ، وهو الذي يسير الأحداث في الكون كله ، ومن ثم فإن تحركات التاريخ محسوبة ومقدرة أبدياً ، وكل الحوادث تسير إلى حيث هو مرسوم لها أن تسير ، وكل جانب يأخذ مبرراته من المسار العام للأحداث التاريخية .

ويلاحظ القارئ المفضل أن هيغل تأثر في رأيه بمدارس التفسير الديني للتاريخ التي ترجع كل شيء إلى إرادة الله سبحانه وتعالى وتقديره ، وهذه المدرسة تفضل التأمل في معالم العصر والحياة عند دراسة التاريخ ، وليس شرطاً أن تبدأ من القديم ، فإذا ما اكتمل تأملنا لمعالم الحياة أمكننا إرجاع النماذج الحاضرة إلى أصولها الأولى ، أي أن هذه المدرسة تفضل أن تبدأ من التاريخ المعاصر ، وتتابع التقصي حتى التاريخ القديم .

الاتجاه الثاني

أما الاتجاه الثاني فهو الاتجاه الهادي ، أو المدرسة المادية في تفسير وفلسفة التاريخ ، والمعروف لنا أن الهاديين من ألد خصوم المثاليين ، وأحياناً يعرف الماديون بأنصار المدرسة الطبيعية ، والسبب في ذلك أنهم نظروا إلى التاريخ على أنه فرع من فروع التاريخ الطبيعي والعلمي الذي يسقط الجانب الروحاني ، ويتحرى المادة وحدها ولا غيرها ، وبذلك عرفوا أحياناً باسم أصحاب المذهب الواحد . والاتجاه الهادي يقول لنا : إنه لكي ندرس التاريخ لا بد أن نبدأ من القديم حتى نلاحظ التطور الذي حدث في المجتمعات الإنسانية ، وبذلك نتمكن من رصد حركة التطور وعلى ضوء ذلك نصنع معايير للتاريخ الإنساني ، وهذه المعايير سوف تهدي المؤرخين إلى المنهاج السليم الصحيح عند كتابة التاريخ .^(٤)

هذا ، وقد اشتد الجدل بين أنصار المدرستين: المدرسة المثالية ، والمدرسة الطبيعية منذ وقت طويل حول البحث عن النمط الذي تسلكه الحركة التاريخية على الوجه الأعم ، ونوع اتجاه هذا التحرك .

والجدل طويل ومعقد ، وهو فلسفي أكثر منه تاريخي ، ويدور الجدل بين ثلاثة آراء سنحاول توضيحها للقارئ قدر الطاقة والإمكان .

الرأي الأول: التاريخ يسير نحو التقدم

إن التقدم التاريخي يتم عن طريق صراعات شاملة بين أسس قديمة للتنظيم الاجتماعي وأسس جديدة ، ولكن في نفس الوقت يرون أن التطور التدريجي لا يؤدي إلى نتيجة حاسمة ، لأنها لا تقضي على القديم برمتها بل تحوره وتطوره ، ومن ثم فإن الحركة التاريخية في حاجة ماسة إلى دفعة قوية للقضاء على القديم جملة وتفصيلاً عن طريق الثورة الشاملة ، وأن العنف وما يجلبه على البشر من كوارث

٤ . سيد أحمد علي الناصري ، علم التاريخ ، كلية الآداب ، جامعة القاهرة ، ١٩٧٧ ، ص ٣٩ وما بعدها بتصرف من عندنا .

مليء بأحداث لا قيمة لها ، لأنها لا تأثير لها بأي حال من الأحوال ، وهو الذي نطلق عليه أحياناً (الكم المهمل) .

نقول للباحث أو الدارس التاريخي : حاول أن تركز على الأحداث والأفكار التي كان لها صدى واسع ، وكان لها رد فعل ونتائج ، الأحداث والأفكار التي يمكن أن نجعلها دروساً مستفادة في حاضرنا المعاش وفي مستقبلنا المأمول .

لا أحد يهتم أو يعتني بالأحداث المغلقة ، أي التي بلا مردود فعلي ، فهي تذكرنا بالأزقة المغلقة التي لا يمر فيها أحد من الناس ، لأنها لا توصل إلى شوارع أخرى نستطيع السير فيها وصولاً إلى المكان الذي ننشده .

وكلما كان للحديث صدى أوسع كلما كان أكثر اهتماماً ، وأجدر بالاختيار والبحث والدرس والتمحيص ، فموضوعات التاريخ لا تدرس اعتباطاً ، أو كيفما اتفق أو عفواً ، كما أنه لا يوجد عند المؤرخ الضليع المتمكن نماذج جاهزة يفصل التاريخ عليها ، بل عليه أن يدقق ويحقق ويمحص في الاختيار ، وأن يبحث بنفسه ولنفسه من أجل أن يجد النموذج الأفضل والأحسن لبحثه بعد أن يكون قد كون لنفسه فكرة واضحة عن طبيعة وأهمية علم التاريخ .



من مؤلفات الأستاذ بسري عبد الغني عبد الله:

له أكثر من ٢٨ كتاباً منشوراً ما بين مؤلف ومحقق ومعد ، منها :

- الإسلام والتنمية الاجتماعية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٨٥ .
- المدينة العربية الإسلامية ، نظرات في الأصول والتطور ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٨٧ .
- مؤرخون مصريون من عصر الموسوعات ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ٢٠٠١ .
- معجم المؤرخين المسلمين حتى القرن الخامس عشر الهجري ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٩٩١ .
- معجم المعاجم العربية ، دار الجيل ، بيروت ، ١٩٩٠ .

بوثة تحقق التوازن ، ثم تتقدم منه إلى وضع غير متوازن يمثل في حد ذاته تحدياً جديداً يتطلب بالمثل استجابة ، وعندما تتوقف حضارة عن مقابلة التحدي باستجابة أو عجزت في ذلك أو كانت الاستجابة غير فعالة يكون ذلك بداية التدهور والاضمحلال^(٥) .

بعيداً عن فلسفة غير مفيدة

قد يكون مصدر التحدي من الداخل عن طريق البروليتاريا الداخلية (العمال والفلاحون والطبقات الكادحة) التي تتسحب عن القيادة المسيطرة ، أو يكون التحدي عن طريق البروليتاريا الخارجية أي الشعوب التي ترتبط بالدولة القاهرة أو المسيطرة ، وتتربص بها ، وتتحين أي فترة ضعف للانقضاض عليها .

حقيقي أن كل الحضارات الإنسانية تمر بالمراحل الثلاث المعروفة: الميلاد والاكتمال والشيخوخة أو الموت ، لكن لا نستطيع بأي حال من الأحوال أن نجزم بأنها حضارات متشابهة أو أن كلامها يكمل الأخرى ، كما أن تعريف التاريخ بكلمة حضارة يشكل صعوبة بالغة ، فلا يزال هناك خلاف كبير على تحديد كلمة حضارة ، كما أن الأحداث التاريخية الكثيرة والمتشعبة أكبر من أن تخضع لقوانين أو مقاييس فكرية معينة ، وهي لا تسير في شكل معين ، لا في خط تقدمي مستقيم ، ولا بالخط الراجع إلى الخلف ، بل تسير في خط متعرج .

إن نظرة فاحصة على تاريخ العالم القديم الذي يبدأ من خمسة آلاف سنة مضت (تقريباً) لا يظهر مثل هذه التصورات ، ولا تسير أحداثه في خط معين ، بل يراها البعض أنها تسير حينها اتفق فليس حياة الشعوب آلة تعمل بطابع واحد معين حتى يمكن تصنيفها بتلك المقاييس السالفة الذكر .

إن الذين يحاولون وضع معايير لحركة التاريخ إنما يبحثون قضايا فلسفية بحتة لا علاقة للتاريخ بها أي أنها ليست بقضايا تاريخية ، كما أنهم يستخدمون الأحداث التاريخية ليبرروا آراءهم الفلسفية ، وبذلك يصبح التاريخ الإنساني وسيلة للتفلسف والفلسفة ، وهو أمر مخالف لطبيعة الأمور والأشياء .

ولهذا رفض المؤرخ البريطاني الكبير / براترند راسل مثلاً الإيمان بالاتجاهات السابقة للحركة التاريخية ، وذلك لأنه لا يوجد لها مجرى ثابت ، فالمستقبل القريب قد يكشف لنا عن حوادث قد تجعل مسار التاريخ مخالفاً تماماً لما قيل أو كتب ، كما أن مشيئة الله سبحانه وتعالى التي تأتي من حيث لا ندري ولا نتوقع ولا نحسب لا تخضع لهذه الحسابات الهندسية للتاريخ .

من ثم فإن دارس التاريخ لن يستفيد كثيراً من الجدل العقيم حول فلسفة التاريخ في صياغة منهجه الخاص ، اللهم إلا إثراء ثقافة القارئ أو الباحث أو الدارس التاريخي .

قضية الاختيار التاريخي

لو سأل باحث أو دارس تاريخي نفسه: ماذا أختار من موضوعات تاريخية كي أكتب عنها ؟ . يجيء الرد على النحو التالي: على الباحث أن يختار ما هو مهم ، ما هو مفيد للناس ، ما هو مفيد للمستقبل ، فالتاريخ

٥ . حسين محمد ربيع ، مناهج علم التاريخ ، كلية الآداب ، جامعة القاهرة ، ١٩٧٦ ، ص ٤١ وما بعدها ، بتصرف من عندنا .